د. محمد عطيه متولي
إمام وخطيب أول بوزارة الأوقاف

مدارج الصائمين

هذا الإنسان في تغير مستمر من الحسن إلى الأحسن ومن السيئ إلى الأسوء ومن سيء إلى حسن، وشواهد التاريخ والواقع تنبأنا عن هذه الحركة المستمرة للنفس الإنسانية ما بين الصعود إلى الآفاق العليا من الخير والهبوط إلى الدرك السفل من الشر، يرتبط الصوم بعدة قيم ترتقي بالفكر الإنساني وبالسلوك من هذه القيم:

١- قيمة الإخلاص:

فالله تعالى اختص عبادة الصوم بأنها له سبحانه وتعالى حين قال جل شأنه: الصوم لي، مع أن كل العبادات له سبحانه إلا أنه جل جلاله اختص هذه العبادة بإضافتها إلى ذاته المقدسة تشريفا لها وتنبيه للعابدين على أن يصعدوا إلى قمة الإخلاص ليكون لهم مكانا بين عباد الله الصالحين ومكانة في دنيا الناس، ومن تجليات عبادة الإخلاص أن الطالب يتعلم العلم لله فيبحث عن أسراره ويطلب المزيد منه، لا يتوقف عند المنهج الدراسي حفظا وفهما، بل يسعى إلى العلم الذي يرفع الله به عباده المؤمنين، يجتهد في الاحتفاظ بما تعلم وتطبيقه في دينه ودنياه، والمعلم لا يجعل الانتهاء من المنهج المقرر أكبر همه بل يسعى إلى تحبيب الطلاب في العلم وإكسابهم من المهارات العلمية والمعرفية ما يعينهم على فهم الحياة والقدرة على التغلب على صعوباتها ولن يكون ذلك من الطالب والمعلم إلا عندما تكون قيمة الإخلاص نصب أعيننا كيف تتغير نظرتنا إلى العملية التعليمية من عمل مجهد يحرم الطلاب من اللهو واللعب إلى عبادة يتقربون بها إلى الله ويسعون لنيل أعلى الدرجات في الدنيا والآخرة.

وكل من يعمل في وظيفة عامة كيف يغيره الإخلاص الذي يتزود منه من خلال عبادة الصيام عندما يثقل عليه العمل ولا يجد من يساعده ولا من يقدر جهده حق قدره فيغيب عن حفلات التكريم حين يحضر من يحسن التزلف، كيف يدفعه الإخلاص أن يعمل بكل جهده ليرضي الله عنه قبل أن يرضى عنه الناس، كيف يحمله الإخلاص على أن يعمل حيث لا عين تراقبه ولا من يقف على رأسه، فارق كبير جدا بين عمل المخلص الذي يرضي ربه وبين عمل من يسعى لرضى الناس، الأول يتقن عمله وينجزه على أحسن ما يكون، بينما الثاني يحرص فقط على أن يظهر عمله بشكل حسن حتى لو كان العمل لم ينجز أو أنجز

بشكل ناقص أو على غير المواصفات القياسية، كيف تنقلنا عبادة الصيام من منزلة العاملين لمجرد العمل إلى منزلة المتقنين لعملهم القائمين به على خير الوجوه ويمثل المخلصين وإن كانوا قلة تقوم الأمم وتنهض.

٢- التقوى:

ومن القيم التي تغرسها عبادة الصيام قيمة التقوى، تلك القيمة التي تحث النفس على طلب الكمال وتجنب مواضع القصور، فلا يزال المسلم ساعيا إلى تكميل خلقه وتكميل علمه وتكميل عبادته واكتساب المهارات اللازمة طوال عمره واضعا نصب عينيه من استوى يوماه فهو مغبون بينما أولئك الذين يغيب عنهم مفهوم التقوى يبقون في أماكنهم والعالم يتحرك من حولهم، إن التقوى بمفهومها الواسع أكبر حافز على التغير إلى الأفضل فيما يتعلق بدين الإنسان ودنياه.

٣- الشكر:

في ختام آية الصيام أمرنا الله تعالى أن نشكره على نعمه والشكر يتطلب إدراكا لهذه النعم كيف تغير عبادة الشكر من أحوالنا حين نشعر بنعم الله تعالى، فإذا عرفنا هذه النعم أمكننا أن نستفيد منها، كم من صاحب موهبة يحتاج إلى اكتشافها يكتشفها بنفسه أو يسخر الله تعالى له من ينبهه على هذه النعمة، فيكون اكتشافه لهذه المواهب سبب لوجود خير كثير يعود عليه وعلى من حوله، وربما على البشرية بأسرها، فطريقنا إلى الشكر يمر بالإدراك وإدراك النعم ومن ثم محاولة استخدامها فيما يرضي الله وينفع النفس، والناس من أكبر عوامل التغيير في حياة المسلم، ثم إن إدراك النعم وشكر الله تعالى عليها سبب للراحة النفسية، وسبب للشعور بالغنى ودافع إلى الرضا وعدم التطلع إلى الآخرين، ثم إن شكر الله تعالى إذا تم على الوجه الصحيح أثمر حركة مباركة في المجتمع تعميرا وزيادة في الخير ونصحا وبرا بالقريب والغريب، بينما جحود النعم أو عدم الشعور بوجودها يتسبب في وجود إنسان سلبي بائس يضايق الآخرين، فما أعظم أثر الشكر في تغيير حياة الإنسان إلى الأفضل.

٤- تربية الإرادة:

يستفيد المسلم من عبادة الصيام تقوية إرادته، وهي بداية التغيير وأول خطوة في طريق الإصلاح، فالله تعالى لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، والتغيير أحد الغايات الإنسانية، لكن لا يستطيع القيام به إلا أصحاب العزائم والإرادة القوية.

ففي الصيام يترك المسلم حاجات أساسية أياما معدودات تتقوى فيها إرادته شيئا فشيئا حتى يملك نفسه في الغضب والرضا، وفي المواقف المختلفة، ويمنعها من الانسياق وراء شهواتها، ومن استطاع أن يملك أمره منع نفسه من الكسل حين يتطلب الأمر المزيد من العمل، ومنع نفسه من الاندفاع حين يتطلب الأمر المزيد من الحكمة، ومنع نفسه من الإسراف حين يتطلب الأمر المزيد من التوسط، وهكذا يترقى الإنسان في مدارج المجد لا تتحكم فيه شهوة ولا ينساق وراء من يزين له السوء أو يعده ويمنيه، كم أضاعت عبودية الإنسان لهواه عليه من فرص عظيمة ومنح إلهية وعطايا ربانية، بينما أولئك الذين يسعون إلى امتلاك إرادتهم يقبلون على الخير ويصبرون في سبيله حتى يعطيهم الله عز وجل ما يحبون في الدنيا والآخرة.

٥- تقدير الذات:

من أجمل ما قيل في تقدير الذات أن الشخص المنافق يحتقر نفسه ويحترم الآخرين لأنه إذا كان بين الناس سعى لأن يظهر بأجمل الأشكال وأحسن الأحوال بينما إذا خلا بنفسه لا يعينه أن يكون بأي حالة، تنمي عبادة الصوم احترام الإنسان لنفسه فلا تسمح له نفسه اللوامة أن يتجمل للناس بينما هو قبيح في داخله لا تسمح له أن يظهر بمظهر من يحرص على أكل الحلال، بينما هو يحتال على الآخرين ليأخذ ما ليس له ويخدعهم حين يتعامل معهم، لا تسمح له نفسه اللوامة أن يظهر بمظهر المتصدق بينما هو مانع للزكاة، لا تسمح له نفسه اللوامة أن يظهر بمظهر صاحب الخلق الحسن بينما هو سيء الطبع مع زوجته وأولاده ووالديه.

٦- استصحاب النية:

من بين ما تساعدنا به عبادة الصيام على التغيير استصحاب النية، والنية تكشف عن رؤية واضحة للإنسان فيما سيقوم به من عمل، فهي تميز بين العادة والعبادة وبين العبادات بعضها وبعض وكثير من الأعمال التي تتم بلا نية تكشف عن قصور في الرؤية وعدم بلوغ الهدف، لأن الهدف من العمل لم يكن واضحا أساسا بينما عندما ننوي نكون قد حددنا مقصودنا من العمل، وهذا لا يأتي إلا بعد تفكير استصحاب النية يساعدنا على التغيير ويبعدنا عن العشوائية في العمل ومع توجيه النبي ﷺ لنا بأهمية النية حين قال: إنما الأعمال بالنيات، نكتشف أن النية هي الطريق للوصول إلى أفضل النتائج في الدنيا والآخرة.

استشعار هذه القيم يكشف عن بعض معالم التغيير الذي ينتقل به الإنسان من محيط إلى محيط، ومن دائرة المعصية والكسل إلى دوائر الخير والحق والجمال سعيا إلى ما يرضي الله وينفع الناس.